

بصد المادية الجدلية

- مقدمات أولية -

جميلة صابر

مقدمة

منذ انقسام المجتمع إلى طبقات ، و تطور قسمة العمل الاجتماعي ، و بروز إمكانية تطور الفكر الفلسفي ، دأب الفلاسفة القدامى على محاولة تفسير الكون و العالم ، بإعطاء فكرة عامة عن الطبيعة و المجتمع ، و في محاولاتهم تلك انقسم الفلاسفة إلى معسكرين : معسكر مثالي و معسكر مادي. و قد استطاع الفلاسفة اليونان القدامى أن يقدموا فهما صحيحا و موضوعيا إلى حد ما للعالم ، حسب الحدود التي كانت تسمح بها ظروفهم التاريخية ، عالم يتحرك و يتغير و يتلاشى.

هذه الحقيقة الديالكتيكية كان الفيلسوف هيراكليت¹ أول من عبر عنها ، أي أن الديالكتيك ولد في اليونان ، لكن الديالكتيك في العصور القديمة ، كما يقول ماوتسي تونغ² ، "كان يتصف بصفة العفوية و السذاجة ، و في الظروف الاجتماعية و التاريخية التي كانت تسود في تلك الأيام ، لم يكن من الممكن أن يأخذ شكل نظرية كاملة ، و هكذا عجز عن تفسير الكون تفسيراً كاملاً ، فحلت الميتافيزيقا فيما بعد محله".

فلسفة الماركسية هي المادية الديالكتيكية. بالنسبة لكارل ماركس و فريدريك انجلز ، فالديالكتيك المادي هو علم القوانين العامة للحركة و التطور في الطبيعة و المجتمع و الفكر.

لقد تبلورت الماركسية كنتاج للصراعات الطبقيّة للبروليتاريا ، فشكّلت تعبيرها النظري ، و في نفس الوقت مثلت ثورة فلسفية عميقة. إن الماركسية كانت أول فكر يفسر إمكانية الثورة الاجتماعية ، في كل مجالات الحياة الاجتماعية ، و منذ انطلاقتها الأولى تميزت الماركسية بخاصيتين أساسيتين:

1. تعريف المادية الديالكتيكية (الجدلية)

المادية الديالكتيكية هي نظرة فلسفية علمية للعالم ، و هي جزء مكون للنظرية الماركسية و أساسها الفلسفي ، و قد وضع ماركس و انجلز الأسس الفلسفية للمادية التي تبلورت في منتصف أربعينيات القرن 19 ، و تطورت مرتبطة بالتقدم العلمي و مسيرة الحركة العمالية الثورية ، و كان ظهورها ثورة في تاريخ الفكر الإنساني و تاريخ الفلسفة. فالمادية الديالكتيكية هي أحد المصادر الثلاث للنظرية الماركسية – اللينينية و مكوناتها الفلسفي ، إن

1. هيراكليت: فيلسوف يوناني عاش قبل سقراط ، فيلسوف مادي قال أن كل شيء في تغير و حركة مستمرة و هو صاحب مقولة "لا تستطيع أن تسبح في نفس النهر مرتين" تعبيرا على أن مياهها جديدة تتدفق فيه ، و أن نظام العالم واحد لم يصنعه أحد هو دائما و سيكون كذلك أبدا.

2. ماوتسي تونغ: (1893 – 1976) زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ 1935 حتى وفاته ، سياسي و قائد عسكري ، زعيم الثورة الصينية و قائدها ، و مبدع الثورة الثقافية البروليتارية الصينية ، و قائد الثورة العالمية في مواجهة التحريفية. توفي سنة 1976.

جديدا للعالم و التاريخ ، فقد رأيا مهمتهما في إتمام بناء المادية ليصلا بها إلى القمة ، و إعطاء البشرية فهما ماديا علميا للتاريخ ، و لتنفيذ هذه المهمة اقتضى الأمر منهما وضع ديالكتيك ثوري ، و توحيد المادية و الديالكتيك في مذهب موحد كامل هو المادية الديالكتيكية و تطبيقه على تاريخ المجتمع⁴ . هكذا بلور كارل ماركس و رفيقه فريدريك انجلس سلاحا البروليتاريا الثوريين: المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية.

- طابعها الطبقي: تطرح الماركسية بوضوح انحيازها للبروليتاريا ، و اعتبرت أن المادية الديالكتيكية تخدم هذه الأخيرة.

- طابعها العملي: يتجلى في تأكيدها على تبعية النظرية للممارسة و ارتكازها على هذا الأساس ، ثم العودة لخدمة الممارسة.

2. المادية والديالكتيك: نبذة تاريخية

- كيف تطور الديالكتيك:
لقد تطورت المادية و الديالكتيك كقاعدتين منفصلتين عن بعضهما البعض ، فالمادية ظلت ميتافيزيقية غير ديالكتيكية ، أما الديالكتيك فقد تطور في المذاهب الفلسفية المثالية ، و لا سيما في مذهب الفيلسوف الألماني المثالي هيغل ، و بحكم مثالية هذا الأخير ، ظل الديالكتيك عنده يحتوي على نواقص كبيرة. إن ديالكتيك هيغل⁵ لم يكن مطبقا إلا على تطور الفكرة أي على الوعي ، والفكرة عند هيغل هي التي تتطور و تنتقل من حالة إلى أخرى ، أما الطبيعة فلا تطور لها في الزمان ، أي ليس لها تاريخ خاص ، لكن فلسفة هيغل ، وإن كانت مثالية ، فقد قدمت خدمة عظيمة الأهمية للديالكتيك ، يقول ماو تسي تونغ " لكن ديالكتيكه كان مثالي النزعة ، حتى جاء ماركس و انجلز ، هذان المعلمان العظيمان للحركة البروليتارية ، فلخصا المنجزات الإيجابية في تاريخ المعرفة البشرية ، و استوعبا على الأخص بصورة ناقدة العناصر المعقولة في ديالكتيك هيغل ".
إن النظام الفلسفي المثالي لهيغل ، يعتبر أن تطور

عرف الظرف الذي نشأت فيه المادية الديالكتيكية تعدد الاكتشافات العلمية (فيزياء ، كيمياء ، بيولوجيا ...) و عناصر تركيز نظام اجتماعي جديد هو النظام البورجوازي ، و كل ما صاحبه من انهيار ركائز النظام الإقطاعي ، ثم ولادة حركة جديدة في التاريخ ، هي حركة طبقة البروليتاريا³.

فالانقلاب التاريخي الذي شهدته أوروبا على المستوى الاجتماعي و السياسي و الإيدولوجي أثر تأثيرا حاسما في نشأة المادية الديالكتيكية.

- المادية القديمة و مادية ماركس:

إن ما يميز مادية ماركس عن المادية القديمة ، هو كون أصحاب المادية القديمة لم يكونوا ماديين إلا في تفسير ظواهر الطبيعة ، أما في تفسير الحياة الاجتماعية فقد ظلوا مثاليين ، لذلك كان نقد نواقص المادية القديمة نقدا جذريا و دحضها شرطا ضروريا لإنشاء المادية الديالكتيكية ، و إذا كان ماركس و انجلز قد أبقيا الأساس المادي للفلسفة السابقة أي الفهم المادي للطبيعة ، فقد قاما بتثويره عبر ربطه بالديالكتيك و بالعلاقات الاجتماعية ، مقدمين بذلك للبشرية و للبروليتاريا نظرية مادية جدلية متكاملة ، مقدمان بذلك للبشرية فهما ثوريا

3. البروليتاريا: طبقة العمال الأجراء المعاصرين ، الذين لا يملكون أي وسائل إنتاج ، فيضطرون إلى بيع قوة عملهم لكي يعيشوا. (تعريف البيان الشيوعي للبروليتاريا).

4. انظر "الإيدولوجية الألمانية" ماركس انجلز.

5. هيغل: جورج فيلهلم فردريش (1770 - 1831)، من عائلة بروسية (نسبة إلى بروسيا)، فيلسوف ألماني، يعتبر أحد أهم الفلاسفة الألمان، أهم مؤسسي الفلسفة الألمانية المثالية في القرن 19، تقوم فلسفته على اعتبار أن الوعي سابق للمادة عكس ما تقول به الفلسفة الماركسية، ترك هيغل حوالي 20 مجلدا نشرت بالألمانية، و ترجم معظمها إلى عدة لغات بما فيها العربية.

تقدمي فيه .

و لقد حطم فيورباخ⁶ نظام هيغل الفلسفي المثالي ، لكن احتاج الأمر إلى عبقرية ماركس من أجل استخراج النواة الثورية و تحطيم النظام الفلسفي الهيجلي ، و قد أصبح الديالكتيك على يد ماركس ماديا بعدما كان مثاليا عند هيغل .

(3) ديالكتيك ماركس و ماديته:

إن النواة العقلية في ديالكتيك هيغل التي عثر عليها ماركس ، تكمن في التأكيد بأن كل شيء في العالم يوجد في تغير و تطور ، و أن التناقضات الداخلية هي مصدر هذا التطور ، لكن من أجل فصل هذا المذهب التقدمي للتطور عن القشرة المثالية ، كان من الضروري صياغة ديالكتيك هيغل من جديد صياغة جذرية على أساس مادي و إضفاء شكل علمي معاصر عليه ، و انطلق ماركس كذلك من الإسهام الهيجلي لضرب الفلسفة المثالية الذاتية (كما هو الحال عند بركلي⁷ و لدى كانط⁸ في شكل آخر).

6 . فيورباخ لودفيغ: (1804 – 1872) فيلسوف مادي ألماني ، أثر تبنيه للمادية و دفاعه عنها على معاصريه ، في البداية كان تلميذا لهيغل ، ثم أصبح من أهم معاصريه ، نقد فهم هيغل المثالي لجوهر الإنسان و نبذه للمثالية بصفة عامة ، و قد ظل فيورباخ في فهمه للتاريخ يتخذ مواقف مثالية ، من أهم كتبه "في نقد الفلسفة الهيجلية".

7 . بيركلي جورج: (1685 – 1753) ، فيلسوف انجليزي مثالي ذاتي ، أهم كتبه "مبحث خاص بمبادئ المعرفة الإنسانية" ، يقول أن الإنسان لا يدرك شيئا بطريقة مباشرة سوى أفكاره وإحساساته ، و أن الأشياء لا توجد إلا في المدى الذي يمكن فيها أن تدرك (أن يوجد الشيء يعني أن يدرك) ، و قد اقتبست منه الكثير من المدارس المثالية مثل المدرسة النقدية التجريبية و البراغماتية و غيرها ، و قد نالت فلسفة بركلي و أتباعه في القرن العشرين نقدا من لينين في كتابه "المادية والمذهب النقدي التجريبي".

8 . كانط إيمانويل: (1724 – 1804) ، فيلسوف و عالم ألماني ، مؤسس المثالية الكلاسيكية الألمانية ، هو مؤسس المثالية النقدية ، من أهم كتبه "نقد العقل الخالص" "نقد العقل العملي" ، أكد بأن طبيعة الأشياء كما توجد هي نفسها ، أي الأشياء في ذاتها ، و هي غير متاحة للمعرفة الإنسانية.

الفكر هو الذي ينظم سير التاريخ ، لقد كان الطرح الهيجلي يقوم على تصور يعتبر أن الفكرة المطلقة (خالقة العالم) هي ذات و موضوع في آن واحد ، و هي في مجرى تطورها مرتبطة بالعالم بشكل لا انفصام فيه ، و قياسا على ذلك تأخذ الحركة الديالكتيكية لديه طابعا موضوعيا يستحيل معه تغيير هذه الحركة بمجرد فعل إرادي ذاتي ، و هنا ينحصر دور الفيلسوف في فهم سيرورة التاريخ ليس إلا.

إن جوهر فلسفة هيغل خاصة علاقة الفكرة المطلقة بالطبيعة ، يقوم على اعتبار الفكرة المطلقة هي الأساس أي المحرك ، بينما الطبيعة هي انعكاس للأولى من خلال مسيرة تطورها الديالكتيكي.

بالنسبة لهيغل فإن الذات المفكرة هي وسيط للفكرة ، التي تعبر عن نفسها كمنطق (للذات) ، و كطبيعة (مخالفة للذات) ، ثم العودة إلى ذاتها (عودة الذات لذاتها).

و بالنسبة لماركس ، و بعد عملية القلب المادي الديالكتيكي ، أصبح الكائن الإنساني يحتل موقعا مركزيا ، و الواقع القائم نتاج للتاريخ مما أدى بماركس إلى بلورة ديالكتيك مادي ملموس ، مقابل ديالكتيك هيغل المثالي.

كان ماركس ملما بفلسفة هيغل ، فقد تعامل معها باعتبارها وحدة متناقضة ، تجمع نظاما فلسفيا يحتوي نزعة محافظة تكرر الواقع ، و في نفس الوقت يحتوي على نواة ديالكتيكية سيزيل عنها طابعها المثالي لتصبح ديالكتيكا ماديا.

لقد استنبط ماركس و انجلز النظرية العظيمة ، نظرية المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية ، من خلال تعامل نقدي ، مادي و جدلي مع فلسفة هيغل ، و بقدر ما أن ماركس ابتغى التغلب على النقص الجذري في ديالكتيك هيغل ، ابتغى كذلك الحفاظ على كل ما هو

هي ما يؤثر على أعضاء حواسنا و يثير الإحساس ، المادة هي واقع موضوعي أعطي لنا في الإحساس".

- المادة و الإحساس و الانعكاس:

يقول انجلز "ليس الكون سوى مادة في حالة حركة ، و هذه المادة التي هي في حالة حركة ، لا يمكن أن تتحرك إلا في المكان و الزمان" ، و يعرف لينين المادة بأنها: "حقيقة موضوعية ، خارجية و مستقلة عن الفكر ، و ليست بحاجة للفكر لكي تعيش". و يقول أيضا: "إن المادة هي مقولة فلسفية للدلالة على الواقع الموضوعي الذي تعرفنا عليه إحساساتنا ، الواقع الذي تنسخه هذه الإحساسات ، تصوره و تعكسه ، و يوجد بشكل مستقل عنها".

إن منطلقات الفكر المادي الفلسفي تقوم على ما يلي:

(1)- الاعتراف بوجود موضوعي للمادة ، המתطورة ، المتحركة بشكل أبدي.

(2) الإقرار باستقلالية الطبيعة عن الوعي.

(3). اعتبار نشوء الإنسان و وعيه هو درجة معينة من تطور الطبيعة ، كنتاج رفيع لها ، في حين وجدت الطبيعة بشكل خالد.

بالنسبة للإحساس و المادة ، فإن الإحساس ليس جوهرًا مستقلاً و منتصباً أمام المادة ، فالإحساس هو نسخة ، صورة ، انعكاس للمادة ، و هذا الانعكاس موجود في المادة و بفضل المادة ، إن هذا هو أساس وحدة العالم: وحدته المادية.

أما بالنسبة لحركة المادة ، فإن كل شيء يتحرك في الكون و في المجتمع ، إن الحركة هي وسيلة لوجود المادة ، بل خاصية ملازمة لها داخليا ، و تتضمن جميع التبدلات و العمليات التي تجري في الكون ، بدءاً بالتنقل البسيط ، و انتهاءً بالتفكير ، هناك تنوع في الطبيعة يساوي تنوعاً في أشكال حركتها ، و للحركة خمسة أشكال أساسية:

(1)- الشكل الميكانيكي: تنقل الأجسام ميكانيكياً

إن إنكار إمكانية معرفة العالم و قوانينه ، حظيت بكل دحض على يد ماركس و انجلز ، فالمادية الفلسفية الماركسية تقوم على المبدأ القائل بأن وحدة العالم في ماديته ، و من الممكن معرفة العالم و قوانينه ، و الديالكتيك في الجوهر ضد الميتافيزيقا ، تلك الطريقة في التفكير الفلسفي التي تنكر الروابط بين الأشياء و الحوادث و تنظر إليه في انفصال عن بعضها ، بينما الديالكتيك يعتبر الطبيعة كلاً واحداً متماسكاً ، ترتبط فيه الأشياء ارتباطاً عضوياً يكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة. يقول لينين: "في الديالكتيك القديم ، لا وجود للانتقال و لا للتطور (المفاهيم و الأفكار) ، لا وجود لعلاقات داخلية و ضرورية للأجزاء كلها ، و لا وجود لانتقال الواحد إلى الآخر".

لم يكن ممكناً القيام بصياغة جذرية للديالكتيك على أساس مادي ثوري ، و إضفاء الشكل العلمي عليه إلا استناداً على منجزات النشاط و العلم الثوريين ، فتطبيق ماركس و انجلز للمنهج الديالكتيكي الذي صاغاه في دراسة الطبيعة و المجتمع ، قد مكنتها من إنشاء مذهب فلسفي يجمع المادية و الديالكتيك في وحدة لا تنفصم ، و هكذا نشأت المادية الديالكتيكية بوصفها نظرية ثورية جديدة إلى العالم ، تلك النظرة التي تستجيب كلياً لمصالح و أهداف نضال البروليتاريا التحرري. إن المادية الديالكتيكية سلاح فكري يساعد البروليتاريا و الكادحين على بناء الحياة الجديدة ، من خلال بناء المجتمع الاشتراكي و الشيوعي ، إن المادية الديالكتيكية هي المفهوم البروليتاري للعالم.

فماهي المادية الديالكتيكية وماذا تعلم ؟

إن المفهوم الخاص بالمادة هو حجر الزاوية في المادية ، في كتابه "المادية والمذهب النقدي التجريبي" يعرف لينين مفهوم المادة كما يلي:

"المادة هي مقولة فلسفية للدلالة على الواقع الموضوعي الذي أعطي للإنسان في إحساساته ... المادة

إحساساتنا و إدراكاتنا و وعينا. إن المكان هو الشرط الأساسي لحركة المادة ، بل شكلها الحقيقي الموضوعي ، شرط وجودها المتحرك.

-الامتداد الزمني:

كل الأجسام موجودة في الزمان ، فهناك دائما الماقبل و المابعد ، و كما أن كل الأجسام موجودة في المكان فهي كذلك موجودة في الزمان ، إن الزمان له وجود موضوعي مستقل عن إحساساتنا و إدراكاتنا و وعينا ، و أنه لولا التباين الزمني بين المراحل المختلفة لعملية واحدة لما وجدت هذه المراحل ذاتها ، و بالتالي لما وجدت أي تبدلات مقنونة (من القانون).

يقول لينين: "ليس في الكون شيء غير المادة المتحركة ، و لا تستطيع هذه المادة المتحركة أن تتحرك بغير إطار من الزمان و المكان".

وفي تعريف الامتدادين يقول لينين:

"المكان هو انتظام تعايش الأشياء المادية ، و أن الزمان هو انتظام توالي تبدل مراحل العمليات المادية ، ينبغي أن نستتبع من هذا أن علاقة الزمان و المكان غير منفصلة عن المادة".

إن الزمان و المكان موضوعيان ، مستقلان عن الوعي و خالدان بسبب خلود المادة ، هذان الامتدادان كان موجودين و هما موجودان و سيظلان موجودين ، فهما غير محدودين و غير نهائيين.

على قاعدة ما جاء أعلاه ، لا يوجد عالمان ، عالم مادي و عالم غير مادي ، و من هنا تحتل نظرية الانعكاس التي طورها لينين ، قيمة فلسفية كبيرة ، فسيرورة الفكرة هي انعكاس لسيرورة المادة المتحركة بشكل أبدي و نهائي.

خلاصتنا حول المادة ، أنه ما من شيء في الطبيعة ينشأ من لا شيء ، و لا يزول أبدا دون أثر ، بل يتحول فقط إلى أشكال أخرى من المادة ، و المادة لا تنفصل عن الحركة ، و الحركة كما يبين انجلز تشتمل على كل المتغيرات و العمليات الدائرة في الكون ، الحركة هي

بالنسبة لبعضها.

(2) الشكل الفيزيائي: و يتمثل في العمليات الحرارية الكهرطيسية ، الظواهر الضوئية ، و التجاذب المتبادل ، العمليات الجارية داخل الذرة و داخل النواة.

(3) الشكل الكيميائي: و يعني مختلف العمليات الكيميائية.

(4) الشكل البيولوجي: كل ما يتعلق بالحياة العضوية.

(5) الشكل الاجتماعي: تاريخ المجتمع البشري.

عموما ، لا يمكن للمادة أن توجد إلا في الحركة.

-المادة، الحركة و السكون:

إن وجود الحركة في المادة لا ينفي السكون و التوازن خلال السير العام المتواصل باستمرار التبدلات المادية ، و السكون و التوازن هما نسبيان ، هناك سكون فقط بالنسبة لهذا الشيء أو الآخر ، وليس بالنسبة إلى المادة ككل ، و المثال الكلاسيكي على نسبة السكون هو مثال المسافر و القطار ، فهناك سكون المسافر بالنسبة لحركة القطار ، و لكن جسم المسافر هو مقر لعمليات حركية متنوعة و فضلها يوجد المسافر ككائن.

"إن إمكانية السكون النسبي للأجسام ، أي قيام توازن مؤقت ، هو الشرط الأساسي لتمييز المادة ، و بالتالي هو أهم شرط لشروط الحياة".

و الخلاصة أن السكون أو التوازن نسبيان أما الحركة فمطلقة ، و هناك وحدة حسية للحركة و السكون.

-الامتداد المكاني:

يعتبر المكان و الزمان البعد الآخر للمادة ، أو ما يسمى بإشكالية الامتداد ، أو ما يطلق عليه أحيانا بالزمكانية ، فلا وجود لشيء خالي من الامتداد (الأبعاد الثلاثة: الطول العرض و الارتفاع).

إن كل شيء في هذا العالم المحيط بنا قائم في مكان ما بين أشياء أخرى ، و هذا ما يطلق عليه بالامتداد المكاني ، الذي هو خاصية موضوعية للأشياء مستقلة عن

هو الذي خلق الإنسان ، المجتمع الإنساني ، و في سياق العمل بالذات ، و في سياق النشاط الإنتاجي تطور الدماغ البشري و الوعي البشري. إن الوعي هو نتاج حياة الإنسان في المجتمع ، إنه ظاهرة اجتماعية ، إن الوعي لا يمكن أن يكون خارج المجتمع ، كما أنه لا وجود للتفكير بغير الغلاف اللغوي المادي ، و بفضل اللغة لا تصاغ الأفكار فحسب ، بل تنقل كذلك للناس الآخرين.

لقد أوضحنا ما هي المادية ، و في أي أشكال توجد ، فما القوانين التي بموجبها تتم حركة المادة و كل تطور في الطبيعة و المجتمع و الوعي البشري ؟

4) الديالكتيك و قوانينه:

* تعريف الديالكتيك:

أ- التغير الديالكتيكي:

يقول انجلز: "ليس من شيء نهائي ، مطلق ، مقدس بالنسبة للديالكتيك"

الحركة الديالكتيكية تقوم على قانون: "لا شيء يبقى حيث هو ، و لا شيء يظل على ما هو".
الديالكتيك إذن ، هو حركة و تغير ، فكل شيء مؤقت ، له تاريخ في الماضي ، و تاريخ في المستقبل ، أي بداية و نهاية.

في الحقيقة ليس هناك شيء سوى السيورة المستمرة للصيورة و الانتقال ، فكل شيء هو نهائي ، له ماضي و مستقبل ، و لا وجود لشيء مرة واحدة و إلى الأبد ، فما هو عليه اليوم ليس نهائياً ، مثال التفاحة أو المجتمع ، و كل شيء ليس مطلقاً ، و ليس بالإمكان تثبيت الأشياء في حالة نهائية ، لا شيء مطلق ، بما يعني أنه لا وجود لشيء ما قد لا يخضع لأي شرط ، أي كلي خالد و كامل ، و لا شيء مقدس ، بما يعني اعتباره ثابت لا يجب لمسه أو مناقشته ، فهذا منافي للديالكتيك ، فوحده التغير خالد.

ب- مفهوم السيورة:

مصطلح فلسفي مشتق من اللاتينية برو سيسوس)

جميع التغيرات التي تجري في الأشياء و في الظواهر ، و لا وجود للمادة بلا حركة ، و المادة لا توجد إلا في الحركة ، و إن جميع الأشياء توجد في المكان ، و يستحيل أن توجد في غير المكان ، و إن كل ما يتم في العالم يجري في الزمان ، لذا كان الزمان شكلاً لوجود المادة ، كما أن المكان شكل لوجود المادة ، فلا وجود للأشياء خارج المكان و الزمان.

يقول لينين: " ما من شيء في العالم غير المادة المتحركة ، و لا تستطيع الحركة إلا في المكان و الزمان. و عليه فإن الزمان و المكان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً و يستحيل فصل أحدهما عن الآخر ، و يستحيل فصلهما عن المادة ، و المكان بلا نهاية و الزمان سرمدي ، أي لا نهائية العالم و وحدته. إن هذا يعني أنه ما من ظاهرة في العالم ليست نتيجة لحركة المادة و لتطورها ، و هذا يعني أن هناك عالماً واحداً فقط ، هو العالم المادي ، و أن وحدة العالم تكمن في ماديته."

- فما علاقة العالم المادي بالوعي ؟

إن الوعي هو خاصية مادة عالية التنظيم ، الوعي إنما هو الأفكار و الإحساسات و التصورات و الإرادة ، و الإنسان هو الذي يتصف بها بالدرجة الأولى.

إن الطبيعة وجدت ليس فقط قبل الإنسان ، بل أيضاً قبل الكائنات الحية ، و أنها بالتالي مستقلة عن الوعي ، و هكذا فإنه لا وجود للوعي و لا يمكن أن يوجد بدون مادة ، و الوعي ليس نتاج أي مادة كانت ، إنه نتاج نشاط الدماغ الذي هو مادي ، الوعي هو وظيفة الدماغ ، لكن لا يكفي أن يملك الإنسان دماغاً مكتملاً لكي يمتلك الوعي البشري ، بل عليه أيضاً أن يعيش في مجتمع ، في جماعة ، فلا وجود للتفكير البشري خارج الجماعة ، فالتفكير ينشأ نتيجة لحياة الناس في مجتمع ، و لا يمكن للتفكير أن يظهر إلا حينما يعكس الإنسان الطبيعة من جهة ، و عندما يدخل من جهة أخرى في علاقات معينة مع أناس آخرين في النشاط العملي الإنتاجي. إن العمل

قانون الفعل المتبادل ، بما يعني أنه لا وجود لقطيعة بين الممالك الثلاث: النباتية ، الحيوانية و المعدنية ، و هاته الاكتشافات الثلاث هي :

- اكتشاف الخلية الحية و نموها من طرف البيولوجيان الألمانيان (شليدن ، شوان: عالمان ألمانيان في علم البيولوجيا).

- اكتشاف تحول الطاقة: الصوت ، الحرارة ، الضوء.

- اكتشاف التطور عند الإنسان و الحيوان (شارل داروين ، كتاب أصل الأنواع).

• التطور التاريخي أو التطور الحلزوني أو اللولبي ، فالشيء لا يتطور في خط مستقيم (ليست هناك حلقة مفرغة أي تدور في مكانها ، فكل مرة هناك تطور جديد ، و هذا يتم في الطبيعة و يتم أيضا في عالم الفكر. إن الأشياء بهذا المنظور تتطور وفقا لسيرورة دائرية ، لكن لا عودة لنقطة الانطلاق ، بل دائما تتجه إلى الأعلى ، و هذا يشمل الطبيعة و المجتمع ، و محرك هذا التطور هو الدينامية الداخلية للأشياء ، كما رأينا سابقا.

(2). قانون التناقض (صراع و وحدة الأضداد):

لقد رأينا أن السيرورات تتحرك وفق ديناميتها الداخلية ، إن هذه الحركة مصدرها وجود تناقض ، و هذا التناقض هو مصدر الحركة ، و السبب الأساسي لها.

يقول لينين "الديالكتيك هو دراسة التناقض في جوهر الأشياء" ، ذلك أن التناقض هو عمق الديالكتيك و نواته الأصلية ، فالدينامية الذاتية المتكلم عنها أعلاه ، ليست إلا صراع و وحدة الأضداد ضمن سيرورة تطور الشيء ، و هذا هو مصدر الحركة.

فمن المنظور الديالكتيكي كل شيء له ازدواجية ، فالواحد مزدوج أو ما يسميه ماو تسي تونغ "الواحد ينشطر إلى اثنين ، و يتضح ذلك من خلال الشعر الشهير القائل ، بأن الامبريالية الأمريكية نمر من ورق.

إن الديالكتيك ينطلق من المضمون الداخلي للأشياء ، يأخذ في نفس الوقت بعين الاعتبار العلاقات

(processus) و تعني السير إلى الأمام ، أو فعل التقدم أو الرقي ، مثلا تطور التفاحة عن طريق تسلسل داخلي تحركه دينامية داخلية خاصة بها. و يعني الديالكتيك هنا ، أنه ليس فقط حركة ، بل هو دينامية ذاتية ، مصدر داخلي لتطور الأشياء.

* قوانين الديالكتيك:

الديالكتيك هو علم القوانين العامة لتطور ظواهر الواقع الموضوعي و عملية المعرفة ، فهناك ديالكتيك موضوعي يتعلق بالظواهر العامة الملموسة في الواقع المادي المستقل عن الفكر ، وهناك ديالكتيك ذاتي هو انعكاس للأول و يرتبط بدينامية الفكر الإنساني ، كما أن الديالكتيك هو منهج ثوري في معرفة الواقع و تغييره.

إن هذه القوانين هي أعم القوانين التي تخضع لها جميع الأشياء و الظواهر في العالم على الإطلاق ، و تسمى قوانين الديالكتيك ، و التي ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا ، و تعطي مجتمعة التصور الشامل عن التطور الذي يجري في العالم (الطبيعة و المجتمع و الفكر).

فما هو القانون ؟ إنه التعبير العام المشترك في الظواهر ، و عليه ، فالقانون يعطي المعرفة عن أعمق الأشياء و أعمها ، و القانون هو مفهوم فلسفي (ليس القانون الحقوقي) أي القوانين الموجودة موضوعيا في الطبيعة نفسها و المجتمع ذاته ، و أهم سمة للقانون هو كونه موضوعيا ، و إذا كانت القوانين تقر بالصلات الجوهرية التي تميز جميع الظواهر في الطبيعة و في المجتمع و التفكير ، فإنها تسمى قوانين عامة ، أي قوانين الديالكتيك.

فما هي هذه القوانين ؟

(1) التفاعل والترابط الشامل:

• هناك ترابط للسيرورات ، مثلا سيرورات التفاحة والشجرة و الأرض ، و العالم مجموعة من السيرورات. لقد أتاح تطور العلوم في القرن 19 إمكانية إعلان

المادية الديالكتيكية فالتناقض يوجد في كل مسار ، يحدث في الأشياء و الظواهر الموضوعية و التفكير الذاتي ، فهو يتخلل كل المسارات من البداية إلى النهاية ، و هنا يتمثل الطابع الكوني و المطلق للتناقض " .
 إذن فقانون التناقض (صراع و وحدة الأضداد) هو نواة الديالكتيك المادي.
 (للمزيد من الحديث عن قانون التناقض ، سيتم التطرق إليه في مقالة مستقلة).

3)- قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات

كيفية

الكيفية هي الماهية الداخلية أي المرتبطة بالشئ ، أي خصائص الشئ و الصفة التي تميزه ، و كما توصف الأشياء و الظواهر من حيث كلفتها توصف أيضا من حيث الكمية ، و لكمية هي تعريف (ماهية) الأشياء و الظواهر التي يجري وصفها بالعدد و المقدار و الوتيرة و الدرجة و الحجم ، و عندما تتغير كيفية الشئ يتغير الشئ نفسه ، و كذلك يؤدي تغير كمية الشئ إلى تغير الشئ ذاته ، و عليه يكمن جوهر قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية ، في أن التغيرات الصغيرة غير الملحوظة في البدء تتراكم تدريجيا و تؤدي في مرحلة معينة إلى تغيرات جذرية كيفية ، و يسبق ذلك أن تزول الكيفية القديمة و تظهر كيفية جديدة تؤدي بدورها إلى تغيرات كمية جديدة. في بادئ الأمر تسير العملية بشكل بطيء و بصورة تدريجية ، و لكن عندما تتراكم بصورة كافية تجري عمليات التغيرات الكيفية السريعة المفاجئة ، إن هذا التحول يسمى القفزة (الطفرة). لهذا السبب يعرف لينين القفزة بأنها "نقطة التحول الحاسمة من كيفية قديمة إلى جديدة بأنها انعطاف حاد في التطور".

إن قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية ، يكشف الآلية الداخلية لتكون الكيفيات الجديدة ، أي أساس التطور نفسه ، لكن ما هي قوته المحركة ؟ ما مصدره ؟ إن هذا السؤال يجب عنه قانون آخر

المتبادلة فيما بينها (قانون التفاعل و الترابط الشامل) ، لكن مصدر الحركة في الشئ داخلي ، أي التناقضات داخلية في الأشياء .

إن التناقض هو مصدر الحركة ، السبب الأساسي لها ، و الترابطات فيما بين الأشياء هي الأسباب الثانوية ، إن العامل الداخلي هو قاعدة التحول و التغيير ، أما العامل الخارجي فهو شرط التحول أو التغيير ، ذلك أن العوامل الخارجية تسبب فقط الحركة الميكانيكية للأشياء و الظواهر ، فهناك تغيير في الحجم و الكم و لا تستطيع تفسير وجود الكيف ، و الانتقال من كيف إلى آخر. إن الحركة الميكانيكية تولدها قوة خارجية تتحقق بواسطة التناقضات الداخلية ، مثال البيضة و الحرارة.

عكس الميتافيزيقا ، فأساس الديالكتيك يقوم على اعتبار أن كل أشياء الطبيعة و حوادثها تتضمن تناقضات داخلية ، لأن لها جميعها جانبا سلبيا و جانبا إيجابيا ، ماضيا و حاضرا ، و فيها جميعها عناصر تضحل أو تتطور ، فصراع الأضداد هذا ، أي الصراع بين القديم و الجديد ، بين ما يموت و ما يولد ، بين ما يفنى و يتطور ، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور ، هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية. يقول لينين "إن الديالكتيك بالمعنى الخاص للكلمة هو دراسة التناقضات في ماهية الأشياء نفسها " و يقول أيضا "التطور هو صراع المتضادات " ، و يقول ماو تسي تونغ "إن هذه النظرة الديالكتيكية إلى العالم تعلم الإنسان بصورة رئيسية كيف يلاحظ و يحلل بصورة صحيحة حركة التناقض في مختلف الأشياء ، و كيف يستنبط على أساس هذا التحليل حلولاً للتناقضات ، و لذلك ، فإن فهم قانون التناقض في الأشياء فهما محددان هو أمر بالغ الأهمية " ، و يقول أيضا "إن قانون التناقض الكامن في الأشياء و الظواهر ، أي قانون وحدة المتناقضات ، يمثل القانون الأساسي للطبيعة و المجتمع ، و من هنا القانون الأساسي للفكر ، إنه يتناقض مع النظرة الميتافيزيقية للعالم ، و اكتشافه مثل ثورة في تاريخ المعرفة الإنسانية ، حسب

لديالكتيك و هو قانون وحدة و صراع الأضداد.

(4) قانون نفي النفي:

إن قانون نفي النفي يبين كيف تتربط مراحل التطور المتتالية ، كيف يتربط القديم و الجديد ، و النفي يتلخص في كون الجديد يحل محل القديم ، أي أن مرحلة من التطور تحل محل أخرى ، و هذه العملية هي ما يسمى في الفلسفة بالنفي الديالكتيكي ، و أهم صفات و خصائص النفي أنه ملازم لكل تطور في الطبيعة و المجتمع ، مثلاً في عملية التطور التاريخي للمجتمع التي هي عبارة عن حلول مجتمعات محل مجتمعات أخرى أعلى تطوراً ، بحكم قانون التطور الاجتماعي التاريخي ، و لذلك عرف التاريخ الإنساني العديد من المجتمعات و أنماط إنتاج مختلفة ، كنمط الإنتاج المشاعي و العبودي و الإقطاعي و الرأسمالي ...

و في تطور المعرفة تخلي بعض موضوعات العلم المكان لموضوعات أخرى ، و هو ما يصطلح عليه بالثورات العلمية.

إن النفي يقوم على وحدة و صراع الأضداد ، و النفي هو حل هذا التناقض الداخلي عن طريق التغلب على جانبه القديم المحافظ و توطيد الجانب الجديد التقدمي. و هكذا يكون التطور عملية يتعرض فيها القديم تدريجياً للنفي و الاستعاضة عنه بالجديد ، و بدون هذا لا يوجد تطور. يقول ماركس "كل تطور يمكن تصوره بصورة مستقلة عن مضمونه بصورة جملة من درجات مختلفة من التطور ، مترابطة بعضها ببعض ، بحيث أن كل درجة تكون نفيًا للأخرى... و لا يمكن أن يجري في أي ميدان تطور لا ينفي أشكال وجوده السابقة". إلا أن الجديد لا يقضي أبداً على القديم تماماً ، فالنفي الديالكتيكي يحتفظ بالإيجابي الذي كان في القديم ، و الجديد يأخذ من القديم منجزات التطور السابق ، كما هو الحال مع النظريات العلمية ، و إن عملية النفي لا تجري بصورة خالصة تماماً ، فليس كل إيجابي من القديم يبقى في الجديد ، و إلى

الجديد قد تنتقل بعض رواسب القديم السلبية.

إن الديالكتيك المادي لا يقتصر على المبادئ و القوانين ، التي تعرب عن الصلات الهامة و العامة في الواقع المتطور ، بل يدرس كذلك الصلات و الجوانب الجوهرية في تطور العالم المادي و المعرفة ، التي تنعكس في مقولات فلسفية ، إن المفاهيم الأساسية في هذا العلم أو ذاك تسمى المقولات ، و تسمى أحياناً قوانين الديالكتيك غير الأساسية.

(5) مفاهيم و مقولات المادية الديالكتيكية

تعتمد المادية الديالكتيكية على مجموعة من المفاهيم و المقولات ، و أشكال التفكير ، التي لا بد من دراستها للتمكن من استيعاب و فهم مكونات الفكر المادي الديالكتيكي ، سواء في طرحه الفلسفي العام (المادة كمفهوم فلسفي ، قوانين الديالكتيك) أو باعتباره في نفس الوقت نظرية للمعرفة (المعرفة الحسية و المعرفة النظرية و وحدتهما المادية و علاقتهما الديالكتيكية) أو لدراسة المنطق الديالكتيكي.

(1). المفهوم: هو مستوى أعلى من التجريد ، يعكس جوهر الشيء ، جوهر الظواهر ، مثال البروليتاريا ، البورجوازية ، الرقم ، الإلكترون ، الحصان ... يقوم المفهوم بعكس (الانعكاس) للعام و الجوهر في مجموعة كبيرة من الظواهر ، و هذا العام الذي تعكسه في المفاهيم ، لا يستنتج من عقولنا بل موجود موضوعياً في الظواهر و الأشياء الوحيدة ، المفهوم واسطة تسمح بالإحاطة بعدد كبير من مختلف الأشياء المدركة حسياً ، و يتشكل من خلال عدد كبير من الظواهر و الأشياء الوحيدة.

ملحوظة: إن إبراز العام لا يؤدي بالضرورة إلى تشكيل المفهوم العلمي ، مثال: الحراثة ، صيد السمك ، يجمعهما وجود جهد عضلي ، فهل هذه قضية جوهرية ، طبعا لا فالحيوان يقوم بنفس الشيء ، فلا بد إذن من ربط الجهد

هناك وحدة و صلة داخلية بين الجوهر و الظاهرة ، يقول لينين "الجوهر يظهر و الظاهرة جوهرية (دفا تر فلسفية) ، و معنى الجوهر يظهر ، أنه ليس هناك جواهر محضة لا تتجلى في ظواهر ، فكل جوهر يتجلى في عمليات و أحداث و علاقات حسية محددة ، مثلا جوهر الرأسمالية يتجلى في ظواهر مثل الأزمة الاقتصادية ، البطالة ، إفقار الكادحين ... أما القول بأن الظاهرة جوهرية ، يعني أنه في كل ظاهرة يتجلى جوهر ، مثال الزبد هو تعبير عن جوهر أي مجرى عميق في أسفل النهر أو البحر .

- وحدة الظاهرة و الجوهر و تباينهما:

تشكل وحدة الظاهرة و الجوهر و تباينهما الأساس الموضوعي لوحدة الحسي و العقلي في المعرفة ، الأساسي لضرورة حركة المعرفة من الحسي إلى العقلاني و من التجريبي إلى النظري .

إن الإحساسات و الإدراكات تعكس (في صورة حسية) الظواهر و الأشياء المنفردة قبل كل شيء ، أما الجوهر فهو غير متاح للإدراك الحسي المباشر ، فلو كان الجوهر و الظاهرة متطابقان لكان العلم من الأمور الزائدة التي لا داعي لها ، يقول ماركس: "إن مهمة العلم تقوم في الوصول بالحركة الظاهرة الطافية على سطح الظواهر إلى الحركة الداخلية الواقعية" .

ما يطفو على السطح يكون متاحا للأحاسيس ، أما الجوهر فنصل إليه عبر التفكير .

إن الجوهر و الظاهرة مقولتان فلسفيتان تعكسان الجوانب الكامنة بالضرورة في كل أشياء الواقع ، و الجوهر هو الوحدة الكاملة لجميع المظاهر و الارتباطات الضرورية لشيء ما ، إنه مجموع الصفات و العلاقات الأعمق و الأكثر استقرارا للشيء و التي تحدد أصله و طابعه و اتجاهات تطوره ، أما الظاهرة فهي مجموع الصفات و العلاقات المتنوعة الخارجية و المتحركة للشيء و التي تنكشف مباشرة للحواس ، و الجوهر مرتبط ارتباطا وثيقا بالظاهرة و هو يكشف عن مضمونه بنوع خاص في

العضلي بمفهوم علمي للعمل .

تشكل المفاهيم عبر استخدام أساليب البحث العلمي المختلفة ، منها:

(1) الملاحظة

(2) التجربة

(3) أشكال الاستنتاج العقلي: الاستقراء و الاستنباط من العام إلى الخاص و من الخاص إلى العام .

(4) الفرضيات

(5) التحليل و التركيب

(2). المقولات: هي انعكاس في فكرنا لأهم خواص و قانونيات العالم ، فكل علم مقولاته ، مثال: الفيزياء: الطاقة ، الكتلة ، المادة ، الاقتصاد السياسي: السلعة ، القيمة ، العمل المجرد ، العمل الحسي ، الديالكتيك: النوعية ، الكمية ، الجوهر ، الظاهرة...

إن مقولات الديالكتيك تتميز عن العلوم الأخرى بكونها تعكس أعم القوانين ، و خواص ظواهر الطبيعية و المجتمع و التفكير .

إن المقولة مفهوم يتصف بعمومية أوسع بشكل كبير ، مثال مقولة المادة: كل الأشياء و الظواهر الموجودة باستقلال عن الوعي .

(1) مقولتا الجوهر و الظاهرة:

- الجوهر: هو الجانب الداخلي الثابت نسبيا من الواقع الموضوعي ، هو الذي يحدد طبيعة الظاهرة المعطاة .

- الظاهرة: هي ذلك الجانب الخارجي من الواقع الموضوعي ، و هو أكثر تحركا و تغيرا ، و يمكن اعتبار الظاهرة هي المظهر الحسي المحدد للجوهر ، مثال: الدولة البورجوازية هي دكتاتورية كجوهر بينما مظاهرها متغيرة .

خلافا للفكر المثالي (مثال الكانطية و غيرها) ، لا يفصل الفكر المادي الديالكتيكي الجوهر عن الظاهرة ، فلا وجود لظواهر بدون جوهر ، و العكس صحيح ،

من أجل أن يعبر عن المضمون ، و هكذا فلا بد لكل مضمون أن يرتدي شكلا ، فبدون الشكل المطابق لا وجود له ، و يستحيل أن يوجد ، و هكذا ليس لكل شيء و لكل ظاهرة مضمون و حسب ، بل شكل كذلك ، إن الشكل هو تنظيم و تركيب المضمون الذي يجعل وجود المضمون ممكنا .

إذن فلكل ظاهرة و لكل شيء مضمون و شكل ، و المضمون هو مجمل عناصر و جوانب العمليات و علاقاتها التي تشكل أساس وجود الشيء المعني و تشتت تطور أشكاله و تعاقبها ، و الشكل هو أسلوب تنظيم و وجود المضمون ، الصلة المختصة الداخلية بين عناصر و جوانب و عمليات المضمون ، الصلة التي تضي على المضمون اكتمالا معينا في التفاعل مع الظروف الخارجية ، إن المضمون و الشكل يؤلفان جانبين لا ينفصلان لجميع الأشياء و الظواهر في الواقع ، فليس في العلم شيء ليس فيه مضمون و شكل . و لأن كل شيء يوجد في حالة تطور فإن المضمون لا يتوقف عند مستوى واحد بل يتطور ، كما يتطور الشكل أيضا ، غير انه أكثر ثباتا و أقل حركة ، و هو يتخلف عن مضمونه . إن الشكل و المضمون ضدان ، و عندما يتطور هذا التضاد و يصبح تناقضا بين الشكل و المضمون ، فإن هذا التناقض يتطلب وضع حد له .

عندما يظهر اختراع جديد فهو يولد في بادئ الأمر في الشكل القديم ، مثال السيارة ، فقد كانت السيارة الأولى نسخة طبق الأصل للعربة ، لكن شكل السيارة القديم كان يعيق زيادة سرعة حركتها ، إلى أن أخذت السيارة الشكل الانسيابي ، هذا يبين أنه يأتي وقت يصبح فيه الشكل القديم عائقا في طريق تطور الكيفيات الجديدة للسيارة .

(4) الضرورة و الصدفة:

مقولتان فلسفيتان تعبران عن نمطين مختلفين من ارتباط الأشياء و الظواهر بعضها ببعض ، و الضرورة هي

الظاهرة و من خلالها ، و الظاهرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالجواهر و لا يمكن أن توجد بدونها .

يقول لينين "الجواهر يظهر و الظاهرة جوهرية" ، و إن كانت الظاهرة أكثر ثراء من الجواهر ، فهي تعبر عنه و تضيف إليه سمات و مظاهر جديدة من الظروف الخارجية التي تحيط بالشيء ، أما الجواهر فهو أكثر استقرارا و ثباتا بالمقارنة بالظاهرة ، و لكن هو الآخر يتغير و يتطور .

يشكل الجواهر و الظاهرة وحدة ، فكما أنه لا يمكن أن توجد جواهر "خالصة" غير ظاهرة ، لا يمكن أن تكون هناك ظواهر خالية من الجواهر ، و تتضح وحدة الجواهر و الظاهرة أيضا في حقيقة أنهما يتحولان الواحد منهما إلى الآخر ، فذلك الذي يكون في وقت من الأوقات جوهرًا ، قد يصبح في وقت آخر ظاهرة و العكس صحيح ، ذلك أن جوهر "أ" يترك المكان لجوهر "ب" أي لجوهر أعمق منه ، و لكن وحدة الجواهر و الظاهرة متناقضة دائما ، و الاثنان طرفان للتناقض ، الجواهر هو العنصر الذي يحدد و الظاهرة هي العنصر الذي يتحدد .

(2) الوحيد و الخاص و العام:

ينطلق الديالكتيك من أن الوحيد و العام يتواجدان في صلة متبادلة ، يقول لينين "فالخاص غير موجود إلا في العلاقة التي تؤدي إلى العام ، و العام غير موجود إلا في الخاص عبر الخاص ، بل الخاص له طابع العام ، و كل عام هو جزء من الخاص ، و كل عام لا يشمل جميع الأشياء الخاصة ، و كل خاص لا يشترك تمام الاشتراك في العام ..."

(3) المضمون و الشكل:

مقولتان فلسفيتان تعنيان أن لكل شيء و ظاهرة خصائص كيفية معينة ، و سمات جوهرية يكون مجملها مضمون هذا الشيء ، مثلا ، إن مضمون الكتاب هو ما يوجد فيه من أحداث و أناس و أفكار ، أما الشكل فهو اللغة و الصور الفنية و الأوصاف التي يستخدمها المؤلف

الشخص؟ كلا بالطبع، إن مثل هذه الحوادث لا يجوز تسميتها بالحوادث الضرورية. و بالتالي للإجابة على سؤال هل هذه الظاهرة أو تلك صدفة أم ضرورة ينبغي العودة إلى الأسباب التي تولدت عنها هل هي أسباب داخلية أم خارجية.

(5) الواقع و الإمكان:

مقولتان تعكسان التطور الديالكتيكي للعالم الموضوعي و المراحل و الفترات المختلفة لظهور و تطور الموضوعات.

إن الواقع هو ما يوجد فعلا، و الإمكان هو ما يحدث تحت ظروف مناسبة، و هي الخواص و الحالات و العمليات غير الموجودة، و لكنها يمكن أن تظهر تبعا لحقيقة أن الواقع يمتلك القدرة الحقيقية على أن يتغير من شيء إلى آخر، و إن أخذ الإمكان شكلا ماديا فإنه يصبح واقعا، و الواقع هو الإمكان في شكل مادي، و الإمكان هو الواقع الممكن، و لا يتحول الإمكان إلى واقع إلا تحت ظروف معينة، و الظروف هي مجموع العوامل الضرورية لترجمة الإمكان إلى واقع، و هناك إمكانات حقيقية متولدة من المظاهر و الارتباطات الضرورية للواقع و الإمكانات الشكلية النابعة من الارتباطات و العلاقات العارضة، و الإمكانات المحددة من الإمكانات الحقيقية و تسمى محددة حين تكون الظروف المناسبة تجعلها تتخذ شكلا ماديا، قد ظهرت أو يمكن أن تظهر، و الإمكانات المجردة هي من الإمكانات الحقيقية، و تسمى مجردة إذا غابت الظروف المناسبة التي تجعلها تتخذ شكلا ماديا، و لتأخذ شكلا ماديا لا بد للظاهرة التي تحتويها من أن تمر بعدد من مراحل التطور.

رابطة داخلية هامة تنبع من الخصوصيات الجذرية للظواهر، و هي ما يجب أن يتم حتما في حال ظروف معينة، و الصدفة هي رابطة ذات طابع سطحي خارجي بالنسبة لظاهرة معينة، فهي نابعة من عوامل عرضية غير مرتبطة بجوهر هذه الظاهرة و هي ما يمكن أن يحدث أو لا يحدث في الظروف المعينة، ما يمكن أن يتم على نحو معين أو نحو آخر، لو كانت الصدفة مهيمنة في العالم لكان عشوائيا، و أيضا لو كانت الأشياء و الظواهر جميعها تتطور على نحو ضروري فقط لكان للتطور طابع غيبي و جبري.

إن الضرورة و الصدفة ضدان ديالكتيكيان يرتبطان ارتباطا متبادلا، و لا يوجد أحدهما دون الآخر، و بالنظر للوحدة المادية للعالم فإن لكل حدث سببه، كما أنه جزء من الرابطة السببية الكلية، و الضرورة تعبير عن هذه الرابطة التي يرجع الفضل إليها في أن الضرورة لا تنفصل عن الكلي و أنها كلية الوجود و تشكل رابطة مطلقة كلية، لا يمكن تصور أي ظاهرة بدون ضرورتها الداخلية و بدون متطلبات الصدفة الخارجية لها على السواء.

إن المقولة الفلسفية "الضرورة" تدل على الصلة المتبادلة الدائمة بين الظاهرات، فالضرورة ليس ما قد يكون أو قد لا يكون، بل هي ما لا بد أن يكون، لأنه ناتج عن أسباب عميقة، لذلك فهو ينبثق من الطبيعة الداخلية نفسها للظواهر.

و لكن هل توجد الصدفة؟

نأخذ مثال عن شخص تعرض لحادثة سيارة، فأدت الصدفة إلى وفاته، فلمذا نسمي مثل هذه الظاهرات صدفا؟ يمكن للحادثة الصدفية أن تقع و لكن قد لا تقع أيضا، فهل كانت حادثة السيارة تؤدي بالضرورة إلى وفاة

خلاصة

تتميز المادية الديالكتيكية عن جميع المفاهيم الفلسفية الأخرى بكونها نظاما عضويا يقوم على التعليل العلمي و الترابط المنطقي للقوانين و المقولات، إنها منهج و عقيدة تعكس بشكل دقيق التطور في الطبيعة و المجتمع و الفكر،

إنها تظهر في آن واحد بوصفها نظرية التطور و بوصفها نظرية المعرفة و منطق التفكير النظري ، و هي تسلح العلوم بطريقة موضوعية لتناول الظواهر التي تدرسها هذه العلوم.

إن كل مناضل ثوري إنما يجب عليه ، ليس فقط أن يعرف كيف يستعمل مبادئ الديالكتيك الأساسية و قوانينه و مقولاته ، بل أن يعرف كذلك كيف يبحث عن السبل الخلاقة لكشفها و إدراكها و تطبيقها في النشاط النظري و العملي المتعدد الجوانب ، و المادية الديالكتيكية ، تكثف فلسفيا مفهوم العالم للبروليتاريا و المستغلين و المضطهدين الذين يقفون في مواجهة العالم القائم من أجل تغييره جذريا ، و لذلك فهي اتجاه فلسفي أبدي معارض للاضطهاد الميتافيزيقي المحافظ ، مما يستوجب عند المناضلين الثوريين الماركسيين اللينينيين تطبيقها المستمر ضد كل المثاليات من أجل إعطاء الثائرين الحق في الثورة ، إعطاء الحق للماركسية الحقيقية ضد المزيفة ، للثوريين ضد التحريفيين و الإصلاحيين ، كما يقول ألان باديو في كتابه "نظرية التناقض" (ألان باديو ، ماسبيرو).

8 مارس 2016

